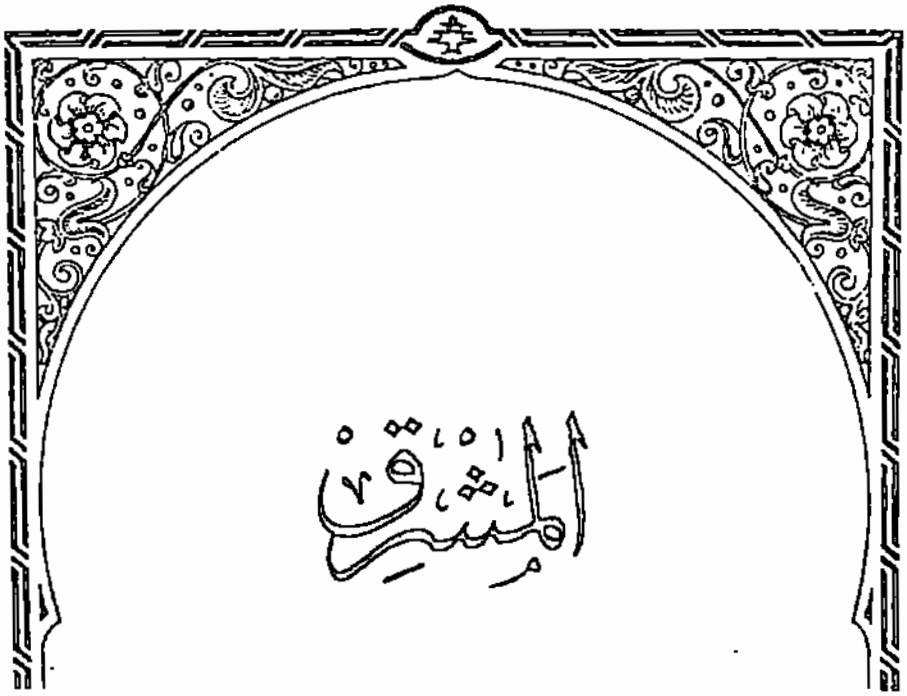

السنة السابعة والاربعون

تموز – آب ١٩٥٣
ايلول – ت ١

الروم الملكيون في الاسلام

مقتل البطريرك الانطاكي الملكي الشهيد خريستوفوروس

سنة ٣٥٦ للهجرة – ٩٦٧ للميلاد

حسدًا له لمكانته لدى الامير سيف الدولة علي بن حمدان (تابع)

ويليه

قسم من اخبار جثالقة الروم الملكيين في العراق وبلاد فارس

نشرهما لاول مرة حبيب زيات عن نسخة يتيمة من القرن العاشر

موجز نسخة الاصل

قال البرطشيار ما معناه بلفظه بوجه التقريب وبعض الاختصار. وهو مثال من انشاء الروم الملكيين المستعربين في القرن العاشر :

« كان البطريرك المعظم والمكرم الشهيد من مدينة السلام بغداد التي

اعتاضها ولد هاجر (العرب) عن مدينة اكتيسفون (المدائن) مدينة ملكهم في الاول وارض علومهم واما والداه فلست اعرف صورتها كيف كانت غير انهما على كل حال كانا كبيرين جليلين . واما مدة تربيته فكانت يسيرة في مدينته بمقدار ما احتاج اليه في التأدب باوائل العلوم حتى احكم ما امكن من بلاغة القول واحكم اكثر من ذلك صناعة الكتابة باليد . لانه كان اذا كتب لا يدري احد كيف يميز الافضل من حال خطه في الحسن ام في السرعة . ومن العناية الالهية التي عنيت بكرسي رأس السليحيين عندنا لم يتيسر له المقام في وطنه طويلاً فانتقل من بلد الكلدانيين الى بلد السريانيين . ولست اعني بلد الكنعانيين الذي هو في هذا الوقت بلد فلسطين بل اعني به البلد القريب منا النازح قليلاً عنا وهو بلد حلب وذلك ان ابن حمدان الملقب بسيف الدولة كان ذكره كبيرًا وحاله في ذلك الوقت في هذا الصقع كبيرة . وكانت آثاره جليلة وكان يعين كل من كانت له فضيلة من الناس لما فيه من الكرم وكبر الهمة وكان يجيئه الناس من سائر الاقطار فلذلك قصده الذي تشبه بالاب القديم في النقلة (ابرهيم) وكان اسمه في الاول عيسى الا انه تسمى في ما بعد بزيسطوفورس فسأله علي بن حمدان (سيف الدولة) الى امير كبير من امراء البادية يسمى خليفة بن لجندي كانت امارته بناحية شيزر . ولم يكن عند الانطاكيين في الاول معروفاً ولكنه عُرف بعد ذلك بما نحن به ذاكروه.

وكانت اكتيسفون التي ذكرناها كبيرة وعظيمة . لانها كانت تخماً وحداً لمملكة الفرس وكان فيها جماعة من النصارى ولهم راع مطران ولم يكن في رتبة المطرنة كفاية لرعاية جمع مثل هذا كبير في سائر بلاد فارس وردّ امورهم الى اساقفة وحدهم يكاد ان يكونوا قليلين . بل كانت الحاجة داعية الى اساقفة كثيرين مما كان يمكن مطران واحد ان يسيسهم ويشرطنهم فدعت الحاجة الضرورية الى كون مطارنة كثيرين. وكانت تلك الديار شاسعة بعيدة عن انطاكية المسماة باسم الله (Théoupolis) وكان في ذلك الموضع من بلاد الفرس يُتبع المصير في اكثر الاوقات الى انطاكية لاصلاح مطران لكل موضع. فتقدم لهذه العلل من القدماء سياسة اخرى جرى مثلها في امم مختلفة واماكن بعيدة مثل بلاد الخزران والابخاز والبلغران يسام انسان يكون سلطانه اكبر

من سلطان المطران يسمى جاثليقاً فاتبع قدماؤنا هذه العادة . وشرطن المتقدم على مدينتنا جاثليقا على مدينة اكتيسفون . فلما بنى بنو هاجر مدينة السلام بغداد رأوا ان ينفوا النصارى من القرب منها فنقلوهم الى بلد بعيد من بلاد فارس يدعى شاش . ونفوا اليه الجاثليق مع من نفوه من اصحابه وسميت تلك العشيرة المنتقلة جماعة الروم (روبجرد) وصار مقام الجاثليق في شاش مدة من الزمان . ولم يكن احد يناظر على ذلك ولا ينازع فيه . فلما ابتدأ جمع من اسرى الروم وتبعهم جماعة بدأت خبيثة المنازعة بين الفريقين فقال الجمع المجتمع في بغداد من النصارى: الجاثليق لنا ونحن اولى به لان مقامه كان في اكتيسفون وهي بعقبنا وجوارنا وبالقرب منا . وقال من كان في شاش اننا نحن اهل ذلك الموضع والمنتقلون من هناك الى هنا بجاثليق المشرق وحسبنا ان الانسان اكرم ممن كل ما في الارض فكذلك نحن يجب ان يكون الجاثليق لنا. وقد انتقل منا فلنا التقدم ويجب لنا اكثر من وجوبه لكم لانكم تطلبون ان يكون لكم التقدم من الحجارة والتراب . وبينما كانت المشاجرة في ما بين الفئتين على هذه الحال اتفق ان توفي الجاثليق الذي كان في ذلك الوقت واحتيج بعده الى انسان آخر يتسم خدمة الكهنوت ووفد الى مدينة انطاكية من روبجرد[1] ثلثة رسل طالبين شيروطنية جاثليق احدهم قسيس والاثنان شمامان

---

١) هذا الاسم كما يدل عليه لفظه مركب من كلمتين « روم » وهم الملكيون المعروفون في كل انحاء الشرق « وجرد » بالجيم المكسورة . وهي لفظة فارسية . ذكر ياقوت ان اصلها بالكاف . قال في تعريفه داربجرد كورة بفارس : دراب اسم رجل . وكرد معناه « عمل » فعُرّب بنقل الكاف الى الجيم (معجم البلدان ٢ : ٥٦٠) فيكون معنى روبجرد « عمل الروم » اي منشأهم ومجتمعهم . وقد نبه البشاري المقدسي على ان اكثر بلدان الاعاجم موضوعة على اسم من انشأها وبناها (احسن التقاسيم ٣٥٩) وفي اسماء القرى والكور في خراسان عدد غير قليل من الاعلام التي كسمت بها كلمة جرد مثل بروجرد . وخسروجرد . ودستجرد . ومهرجرد . وواشنجرد الى آخر ما هنالك . احصينا منها نحواً من ٢٥ علماً . وربما دخل الشطر الثاني من هذه المسميات في تعيين الحصون كحصن سواغرد . وفي بعض قرى بغداد كوستجرد . او في بلدان ارمينية كستازجرد واهله يقولون مازكرد بالكاف بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم يُمَدّ في ارمينية واهله ارمن وروم (معجم البلدان ٤ : ٦٤٩)

وليس لدينا اقل تعريف لموقع روبجرد في كورة الشاش . فلا ندري هل كان البلد اسم

وانا القائل والمصنف رأيتهم وانا صبي مقيمين في كنيستنا يقولون انهم لن يعودوا الا بعد ان يُسمع منهم ويُؤهلوا لأخذ جاثليق لانهم قدموا في طلبه من اقصى الارض .

وكان عيسى المقدم ذكره قد سمع بقدومهم ولم يحسُن عنده موقع ما وردوا فيه لانه كان بغدادياً واحد المقاومين في باب الجاثليق والمتقدم في ذلك وفي التحذير من إتمام ما وردوا فيه فما تراخى ولا ضجع في ترك ما هو عليه من الخدمة وتجشم عناء المجيء الى انطاكية ليدفعهم عما وردوا فيه ولم يكن احد سامه ذلك بل نهض اليه هو من ذات نفسه غيرة لوطنه .

وكان في ذلك الوقت المتولي لسياسة بلدتنا المنسوبة الى الله اغابيوس بن القمبرون المتيّح الذي كان يدير البطريركية قبله . فجرت المناظرة والمشاجرة قدامه في نصب الجاثليق . وكان عيسى شديد المنازعة عن اهل بلده يحتج بحججهم طلباً للظفر واجتذاب الجاثليق الى مدينتهم مدينة السلام العوض عن اكتيسفون . وكان البطريرك غير مؤثر لما يطلبه عيسى ولكنه احتشمه وغلق الامر فاقتنع بذلك عيسى وانصرف الا انه بان للانطاكيين انه رجل كبير جلد وان له غيرة شديدة في امور الكنيسة .

ولم يكن الا هنيهة من الزمان وتوفي البطريرك . وصار اهتمام الانطاكيين باختيار بطريرك راع بعده لان الاختيار لم يكن هنا لمطارنة واساقفة لا يهتمون بشيء غير ما يصلح حال نفوسهم واما ما يصلح احوال الكافة فلا يهتمون به حسبما جرت به العادة في غير هذا الموضع . بل كان الاختيار ههنا لمن يؤلمه هذا الامر والاهتمام به واختياره في العامة والخاصة متساوياً . فلما اهتم الانطاكيون بهذا الباب افاض جمعهم في اختيار واحد بعد آخر فلم يجدوا اوفق لهم واصلح لكرسيهم من عيسى فلما وقع اختيار جماعتهم عليه طلبوه من سيف الدولة لانه هو كان المستولي على هذه الديار فحسن موقع ذلك منه لانه

حي من احياء قصبة بُنكث ام كان داخلا في مدينة اخرى من مدن الشاش . وقد بقي لنا اسم قرية من قرى الشاش يقال لها تنكرة تعرف بقرية النصارى (معجم ياقوت ٣ : ٣٢٤) ذكرها في وصفه الشاش ولكنه اهمل سردها في محلها من المعجم . ولا شك ان اشتهارها بقرية النصارى دليل بيّن على وجود الروم فيها

كان الى عيسى مائلاً وبه مختصاً الا انه لم يكن له طريق الى اجابتهم في اختياره لموضع توقيه تخة الاعرابي الذي كان يخدمه لما كان فيه من الغلظ والشجاعة والاقدام ولم يشك في دفعه عن عيسى اذ كان كاتبه في ذلك الوقت. وكان من توفيق الله وما اراده تبارك اسمه من حصول مثله بطريركاً ان سار ذلك البدوي القرمطي مع سيف الدولة في بعض النزوات فرمته الفرس على جسر صارخة[1] وغرق في نهر ألوس[2]. فاطلق حينئذ سيف الدولة اختيار عيسى. فاستعلى حينئذ المختار سريعاً على كرسي رئيس السليحيين العالي المكرم من الله واخذ الشيرطونية من المطارنة بحسب الواجب فكانت شيرطونيتهُ بهية ولائقة وتسمى خريسطوفورس.

وانه وان كان لم يصر راهباً فقد زاد على الرهبان في ما كان يستعمله وذلك انهُ من شيرطونيتهِ ما طعم شيئاً من اللحوم. وما اقتنع بما جرت سالفة الرهبان عليه في صوم او سهر او قيام. بل زاد عليهم في هذه المعاني كلها وعفى. وكان صومهُ في كل يوم من الليل الى الليل ومن اول السنة الى آخرها بالسواء. لانه منذ تبطرك ما تناول شيئاً من الاغذية في يوم من الايام الا في وقت المساء. ولا كان لهُ ايضاً اهتمام بفنون من الطعام بل كان لا فرق عنده في ما يستطعمه وكانت مائدتهُ كيف ما اتفق لا يحضرها في كثير من الاوقات لا بيض ولا سمك ولا ما يُتَنوَّق فيهِ. وكان شرابه يسيراً من الخمر مع كثير من الماء.

واما قيامه في الصلاة. فكان في الايام المحلولة من وقت كبير من الليل قبل الفجر بكثير وفي ايام الآحاد من مساء دخول ليلة الاحد الى الصباح. واما قيامه فكان كثيراً لا ينثني عنه طويلاً حتى رأيته انا عدة دفعات من شدة الوقوف يكاد ان يسقط الى الارض. وذكرنا من هذا المعنى يسيراً لندلّ به على خشونة السيرة التي استعملها ولم تتقدم له بها تجربة.

١) صارخة بالصاد والخاء بلدة غزاها سيف الدولة في سنة ٣٣٩ ببلاد الروم وذكرها المتنبي بشعره فقال :

فمن له الخرج منصوباً بصارخة ... له المنابر مشهودا بها الجمع

(معجم البلدان ٣ : ٤٣٠)

٢) ألوس اسم رجل سميت باسمه البلدة على الفرات .. قرب عانات والحديثة .

(معجم البلدان ١ : ٣٥٣)

ولما دعت الحاجة الى شرطونية اساقفة على الكراسي الفارغة فالكراسي التي اهتم بها في الاول لم يهتم بها ليس فيه منازعة ولا بكرسي آخر لم تتقدم له فيه مدافعة . بل بالكرسيين اللذين كان يناضل عن احدهما ويقاوم الآخر . وذلك انه جعل جاثليقين احدهما على مدينة السلام وطنه وكان من اهل حلب واسمه ماجد والآخر من اهل انطاكية واسمه اوتيكيوس على روجرد التي كان كان يقاومها فمن هو الذي لم يحمده من الناس على هذه السياسة اللطيفة السديدة المؤدية الى السلم والاتفاق .لانه ما ظلم مدينته واحسن النظر لغيرها ولم يضجع بعد هذا في امر الكراسي الأخر التي كانت فارغة . ولما نظر في بابها لم ينظر لرشوة ام شفاعة ام رضى رئيس ام فَرَق من مقتدر عبوس بل كان اذا رأى وفد المدينة التي تطلب اسقفاً قد ذكروا له المستحق للشرطونية وهو مُرض لله ولهُ يضع يده عليه للوقت ويتسمه . وان لم يرضَ به يختار غيره ممن يرضى اولئك به ايضاً ويضع يده عليه برأي السينودس .

ولاجل ذلك كان المطارنة الذين قبله اذا رأوا حصافة عقله وقوة عزيمته وانه لا يداخله محاباة ولا يرغب في عطاء ولا رشوة لا يخالفونه في شيء مما يرمي اليه .

واما قوة عزيمته وكبر قلبه وغيرته في ما يجتل البيعة ويصلح شأنها فانه كان يقاوم عن ذلك ولا يتحرك ولا يرتدع . ولا بأس ان نذكر هنا خبراً يدنا على ذلك جملةً . وهو انه كان قسيس متطلب قد عرض له هفوة من الهفوات الصغار فعقده الاب المطوَّب ومنعه مدة ما من استعمال الكهنوت وكان ذلك القس يخدم انساناً من امراء بني حمدان عاتياً عسوفاً لا يطيع في كثير من الاشياء ولا لابن حمدان . فاستشفع به الى البطريرك في اطلاقه وحله من الرباط فما تأخر عن الشفاعة في نصراني ذمي . وارسل البطريرك بانبساط قائلاً : مهما كان من خطإ جرى من طبيبي القسيس هَبْ لي ايها البطريرك ذنبه واصفح عنه . فأجابه قائلاً : ليس يمكنني ذلك يا سيدي الامير فاعاد عليه قائلاً في الجواب : يا أقاف اما تهابني بل تجسر ان تقول لي ما يمكنني ذلك . وماذا الذي لا يمكنك اذا امرتك انا به . فاعاد عليه قائلاً : الحوادث من هذه الاشياء كثيرة مما لا تمكنني ايها الامير اذ كانت مخصوصة بديني ومذهبي

وناموسي لاننا نحن في طوعكم وفي اشياء اخرى لا يمكننا ان نخالفكم . واما ما حظره الدين فنحن به مستعدون للسجن وقواطع السيوف . فاعاد عليه الامير : عرّفني على كل حال ما هذه الجناية التي قد تمس دينك فقال تلميذ المسيح : اما قبل هذا ايها الامير فقد كانت الجناية صغيرة وإقالتها متيسرة فاما الآن فانها كبيرة والصفح عنها لا يرام لاني استشنع منه (الشفع بك) وانت مسلم مخالف لنا في مذهبنا اذ كان الامر يخص كنيستنا فاجابه الهاجري قائلاً : فكن من الآن مدججاً بالسلاح واعلم علماً يقيناً انك ستموت وذلك اني آخذ رأسك ولو كان في حضن الامير الكبير . فاذا الذي صنعه البطريرك هل جزع . هل لان . هل انثنى . هل توقف لمراسلة يراسل بها ابن حمدان . لا البتّة بل تصور ذلك كله بصورة الهباء المنثور . ولم يكن له عنده قدر بل توجه للوقت الى انطاكية وكان اذ ذاك بحلب ووثق في ذلك بالله الذي كان عنه يناضل فما اخطأ بحمد الله غرضه فهذه كانت صورته في غيرته وحرصه على ما يجتل البيعة ويزينها .

واذ كان مذهب هذا الرجل الفاضل في هذا المعنى على ما شرحناه فكذلك كانت صورته في غير هذا الباب صورة من لا ينثني ولا يلين . ولكن في الحد الآخر من كان يكون اشد تحنناً من خريسطوفورس او ألين عطفاً للمنكوبين او اشد رحمة للمحتاجين او اوفر عطاء للعافين ؟ على انه لم يكن المال عنده وافراً وكان الارتفاع (الدخل) الذي يرتفع اليه ناقصاً ولكنه في ما كان يمكنه ما كان قط في الاحسان مقصراً . وكان تُرفع اليه الرقاع (العرائض) فلا يُضجع في قراءتها والتوقيع فيها بيده بان يعطى بعض المساكين ورقاً (فضة) ويعطى الآخر كسوة والآخر طعاماً والآخر شراباً وغير هذه اشياء اخرى وقد رأيت انا المصنف لهذا القول قسيساً قد رفع اليه قصة فادخله اليه وسأله . وقال له : كم لك من العيال فاجابه قائلاً كذا وكذا فقال ليُدفع اليه كذا وكذا بُرّاً وكذا وكذا زيتاً وكذا وكذا خمراً . بقدر ما يكفيه السنة فلما اومأ ذلك القس للخروج قال له : عُد الى ههنا ومن اين لك يا بائس اجرة الطحين او شيء من الأدم ليُدفع اليه من هذا ايضاً ما يكفيه . ولم يتركه القديس ينصرف حتى قام له بجميع ما يُقنعه لسنته كلها .

وكان اذا رُفعت اليه ايضاً قصة من محبوس او مطالَب بظلم ان كان

يمكنه ان يخلصه بيسير من عطاياه مما كان يؤخر العطاء عنه ولا خلاصه مما يُطالَب به وان كان هناك صعوبة شديدة ما كان يضجع في الركوب والمرور الى من يطالبه وسؤاله الصفح له عما يرام ان يغرمه .

ولما كان رأسه وذروته والمتقدم بالتمثل له المسيح وكان حريصاً على التشبه به لم يقتنع باشباعه أوفاً من خبزات قليلة بل اضاف الى ذلك مكافاة اخرى بيديه الطاهرتين فغسل ارجل تلاميذه . وأجتهد انا الذي هو تلميذه ايضاً ألا اكتفي بما شرحناه مما تقدم ذكره بل أضيف الى ذلك شيئاً آخر لاخوته المنسوبين الى معلمه وذلك انه كان في ذلك الحين بانطاكية مجاعة شديدة لم يكن يمكن ألا ان تمسّ كافة الناس . ولذلك جمع خريسطوفورس جماً من الذين نكأهم الجوع من شيوخ ومرضى وقسوس وشمامسة وصبيان وايتام ورتبهم في مكاتب . وكان يجلسهم على الموائد ويكون هو قائماً لا يقنع بان يوفر عليهم الطعام بل كان يقدم لهم احياناً بيده ويسقي الشراب واحداً بعد واحد ويبيّن بذلك انه عبد للمسيح امين متشبه به تشبهاً لا يمكن غيره ان يساويه فيه . واذ كنت انا ذكرت ههنا صبيّة وأيتاماً فيلزمني ان اذكر من كان هؤلاء. الصبيان ليبين للسامع لا كبر نفسه في محبته للضعيف بل فضل عقله ولطف سياسته في ما يجمع به العام من المنفعة. وذلك انه لما رأى ضيق الوقت وصعوبته وكانت كنيسة الله مختلة وليس لاكثر الناس علم ولا فكر ولا همة فكّر هو في امر كبير بان فيه خير سياسته واختار اثني عشر صبياً اذكياء نجباء. وسلمهم الى مؤدب بصير بعلوم الكنيسة التي تزيد على غيرها. ثم اقتزع من الفقراء على قوم غيرهم واقرد ايتاماً شبه حالهم عددهم مائة وخمسين صبياً وسلمهم الى معلمين ليعلموا كل واحد ما ينفذ فيه. وتقدم بان يُطبخ في كل يوم ثلثة مواجل كبار فيها ملؤها من الطعام ويحمل كل موجل منها الى كل واحد من المكاتب . ويعطى كل واحد من الصبيان ما يكفيه مع ما يحتاج اليه من الخبز . ويجب أن يُعرف ما اجتمع ههنا من المنافع وهي ثلاث كبار : احداها إعداد طعام لا يتعب فيه من يأكله. والثانية تعليم لا يؤخذ الثواب والاجرة عليه . والثالثة خدمة للبيعة الشريفة . فهذه جملة من افعاله في هذا المعنى .

وانضاف الى ذلك ما هو اكثر في معونة الفقراء وإدعام الدين وذلك ان

الهاجرين يستخرجون من النصارى في بلادهم جزية نسميها نحن جزية الرؤوس ويسمونها هم براءة لانها تبرئ الذي يؤديها من الاذية والتتبع . وليس لاحد من النصارى المقيمين هناك بدّ من تأديتها لان من لا يؤديها يُقاد بغير اختياره الى دين الاسلام . فبعض النصارى يؤدون البراءة بنية صادقة اذا كان يمكنهم ويتعذرون ذلك برًّا ومعروفاً لانه شيء يؤدونه عن دينهم . وقوم آخرون يُضطهدون لانهم معسرون . فالاقوى منهم في الدين ليس هو الذي يتأخر عن الاداء عند امكانه بل الذي يعين الضعيف في ما يُستأدى منه . فلما رأى خريسطوفورس المشتمل في صدره على المسيح هذه الشدة من هذا الباب لم يكفّ عن العطية ولا كان يقتنع بزيادة يزيدها في تأدية براءة بل كان يضيف الى ذلك تأدية جملة البراءة من عنده . ولما كان لم يتيسر له وفر يقوم به في هذا الباب بحسب اعتقاده لانه لم يكن له غزارة ارتفاع انبسط على سؤال الامير سيف الدولة معاونته على محبة المساكين . فلم يخالفه في ذلك لانه كان بالطبع كريماً وكان ميله الى البطريرك خاصة ميلاً شديداً فتقدم الى مستخرجي البراءة بان يصفحوا له منها في كل سنة عن عشرة آلاف درهم يكتب بها الرقاع اليهم لمن يريد ان يوفده . فكان يكتب لواحد بالصفح عن كل براءته . ويكتب لغيره بالصفح عن بعض ما يُراد منه . فما تقدم احد من النصارى على عيده الى دين الاسلام . وحصل للبطريرك من هذا مع الثواب من الله قبول شديد من الامير سيف الدولة .

ولما تحرك على سيف الدولة خلاف شديد وعصيان ثبت مدة طويلة من الزمان انفرد عنه البطريرك وحده ولم يدخل في جملة من عصى عليه من الانطاكيين ولا رضي ان يخاطب واحداً من المتمردين . وكان السبب في هذا العصيان ان الملك نيكيفور المقبوط (Nicéphore Phocas) لما ملك اكثر الثغر عنوة خرّب طرسوس وحدها لان الجوع كان قد نهك اهلها . وكان سيف الدولة في الحال فيافارقين قد فُلج وقدم اهل طرسوس الى انطاكية بنسائهم واولادهم فحذر من كان بانطاكية من الهاجريين على نفوسهم وصاروا الى ابن الزيات المقدم كان عليهم يسألونه ويتضرعون اليه في مقامه عندهم لتدبير امورهم اذ كانت قد تشتت وضعفت وكان يجزع من نفور الملك فتمنع من المقام بالكلية .

وزاد خوف الانطاكيين من امتناعه وحداهم ذلك الى قصد رشيق الغسيسي الوارد من طرسوس وكان ثني ابن الزيات في الامارة . فأجابهم الا انه اشار عليهم بالخضوع لنيقيفور الملك والنزول على حكمه لانه لا يتم لهم ما يريدونه من الهدوء والسكون الا بطاعته . فقبلوا مشورته وبعثوا رسلاً الى الملك يبذلون له تحصيل الاموال وعقد الموافقة برهائن . ولموضع ما كان في الملك من الركانة والاحتراز اجابهم عما راسلوه فيه وقال اما المال فلست اقبله اذ كان مُلك الروم غير محتاج اليه والمسلمون قد يعطونه اليوم ويمنعونه غداً ولا اقبل ايضاً الرهائن . واما الذي التمسه فهو شيء واحد متى اردتموه وعرفتم ما عليكم فيه من الوفاء كان سهلاً خفيفاً وهو ان ابني في صخرة داخل مدينتكم معقلاً ليكون لي فيه سَتَرْدَغوس[1] مع عدة يسيرة تحفظهم واكون انا بها مستظهراً . فلما امتنع الانطاكيون من ذلك فكر رشيق في الحيلة فرأى ان يكشف رأسه كما يقال في العصيان على سيف الدولة ولا سيما مع ما كان عليه من الالم والامتناع عن الحركة وهو ما فسح في قلة الاكتراث به . والتصق برشيق رجل من اهل انطاكية يعرف بالحسن الاهوازي وتولى تدبير امره وذلك بمساعدة اهل انطاكية . وكان شديد الحركة فاطمعهم بان سيف الدولة لا يعود الى الشام واستأمن رشيق دِزْبَر الديلمي وجماعة من الديلم كانوا مع قرغُويه[2] غلام سيف الدولة وسار رشيق وابن الاهوازي وجمع وحشد وقصد مدينة حلب بالمدد وجرى بينه وبين قرغويه حروب كثيرة وتسلمها عنوة بغير تعب وصدق قتال القائمة بها ثلثة اشهر وعشرة ايام . وقتل رشيق بعد ذلك بطعنة اصابته

١) وردت هذه اللفظة ايضاً في زبدة الحلب لابن العديم قال في كلامه على نقفور الملك وابي المحسن علي بن ابرهيم بن يوسف الغسيسي : « عرف نقفور سلفه وجعله ستردغوس » (خزانة باريس ١٦٦٦ ص ٤٤) وهي لفب روسي من القاب الجنود والقواد (στρατηγός) ومنها اخذت اللفظة الفرنسية stratège وقد ضبطها يحيى بن سعيد الانطاكي بصورتها « استراتيغوس » .

٢) روي هذا الاسم على حروف شتى : بالفاء باوله او القاف قبل الراء . والعين او النون قبل الواو . والنون او الياء قبل الهاء بآخره وفي تاريخ العبر لابن خلدون مرعويه بالميم والعين .. وهو زيادة بلة في الطين . وفي نسخة من زبدة الحلب لابن العديم في خزانة باريس منقولة عن الاصل بخطه قرغويه بالقاف والنون والياء وهو الصحيح .

وانهزم اصحابه الى انطاكية فلما حصلوا بها تيقظوا وخافوا وجعلوا دزبر الديلمي اميرًا عليهم وابن الاهوازي مدبرًا له وثبتوا على ما كانوا عليه من العصيان . فقصد قرغويه انطاكية وجرت بينهم وقعة وانهزم قرغويه وعاد الى حلب وسار دزبر الديلمي في اثره الى حلب ولقيه اصحاب قرغويه وحاربوه ودفعوه فرجع الى انطاكية .

فلما رأى البطريرك هذا الاضطراب بانطاكية وانه مُؤذن بزيادة في الصعوبة، كان من تدبير عقله الثبات على مكان سيف الدولة فلجأ الى دير القديس مار سمعان الحلبي لان سيف الدولة وان كان يومئذ قد فُلج ما كان ضاع عقله بالكلية ولا انضبط لسانه عن النطق ففي مدة مقام البطريرك والذين معه في الدير اشتد ذلك على العاصي ابن الاهوازي وقصد اسباب البطريرك باعتقال خواصه والتضييق عليهم وختم على سائر ما كان في القلاية لما انكشف له ميل البطريرك ومن معه الى سيف الدولة . وكان يقول بصوت عالٍ : اذا لم يأتِ البطريرك ويتلافَ امره والا أخرج معه الى زيادة في مـا يغتمه . فهل جزع البطريرك لذلك او هلع منه ؟ لا . ولكنه ثبت على جملته ورآه على مثل هذا بعض خواصه وهو ثاودولس الذي صار بعد قتله اسقفاً على سلوكية وبنى بانطاكية هيكلين حسنين الازكـموطوس[1] ورغم الذهب فجسر عليه وقال له : هل في نيتك ايها السيد ان تقول بعد هذا في بيعتك انا الراعي الصالح وتترك غنمك لتختطفها الذئاب (هنا نقص في نسخة الاصل لم يعين مقداره).

وبعد مدة يسيرة لم يصبر غلمان سيف الدولة على العار بل حرّكوه على المسير وانهضوه فسار من ميافارقين الى نواحي معرة مصرين وانتشب الحرب فيما بين الفئتين فكان الظفر لسيف الدولة وأسر دزبر وابن الاهوازي وجماعة كثيرة من عسكرهما وجعلهم في القيود والسلاسل وحملهم الى حلب وقتلهم وولى على انطاكية تقي (الدين) غلامه .

وقصد خريسطوفورس البطريرك عند ذلك سيف الدولة في حلب مسرورًا. فقبله سيف الدولة احسن قبول وصار حينئذ امامه في كل الاشياء جليساً متقدماً

١) لم نتمكن من تحقيق هذه الكلمة وتفسيرهـا ولا ندري اين كان هذا الهيكل في انطاكية .

وشفيعاً مقبولاً . وانتقل من حال التابع الصغير الى حال الصديق الاثير لا يُشهم ولا يُستصغر لانه قدم في وقت الشدة الامانة والمحافظة والصبر على المضض . فكوفئ على ما اتاه في وقت الضرّاء بالاختصاص والتقديم في وقت السرّاء . وشكره على فعله من بُعده عن المخالفين عليه وقدّمه وتخصّص به . فكان يرى الذين غدروه يعاقبون بالضرب والامتهان وانواع من العذاب يصعب الصبر عليها فما كان يحسن وقوع ذلك منه ولا كان يتعظم لظفره بالوقت بل كان يحزن ويضيق صدره ويقلق فكره ويقول ارحم ايها السيد وخفّف عمن ظفرت به من اجل من اعانك عليه . ولما رأى في جملة من كان يعاقب جارًا من المسلمين بمدينة انطاكية وقد اسرف عليه بضرب السياط لم يصبر على الجلوس لكنه قام قائمًا ثم طرح نفسه الى الارض وسأله ان يهب له جرمه فلم يُجبه بما طلبه فلما أُطلق وسُمح له بما كان أوجب عليه عاد بريئًا من التبعة وليت ذلك لم يكن حتى ان كثيرين من شيوخ انطاكية نقم عليهم سيف الدولة عصيانهم وصادرهم فتشفع البطريك اليه في بعضهم وتوسط امرهم معه فأجاب مسألته فيهم فتأكّد في نفوسهم حينئذ مما شاهدوا من تمكن حاله عند سيف الدولة حسد له وحقد عليه .

واقام البطريك بعد ذلك مدة يسيرة بحلب وسار الى مدينته ومعه توقيعان من سيف الدولة الى اصحابه الذين كان انفذهم الى انطاكية رسم لهم فيهما الا يقنعوا للبطريك ببراءة جماعة من اصحابه من كل تبعة بل يقبلوا سؤاله في سائر من يتوسط امره بمقدار ما يمكن القبول منه . فلما وصل الى انطاكية وجد فيها اميرًا يعرف بتقي الدين الذي ذكرناه ووجد البطريق كُليب[1] هنا يقبض قبضًا كليًا على كل شيء من النعم ويصادر اصحابها بحسب ما تصل ايديهم اليه . فلما رأى البطريك اهل انطاكية يُكدّون في هذه المطالبات من منهم لم ينقذه ويخلّصه من اكثر ما يُطالَب به ومن لم يخفف عنه ومن لم يخلصه بالكلية ؟ وكان بانطاكية رجل من شبانها شديد الغنى والثروة لانه كان ذا

(١) كان كليب كاتب رقناش التركي غلام سيف الدولة وكان حصن برزويه بيد رقناش فسلمه كليب للروم « فصيره ملك الروم بطريقا وكان له ولدان فجعل لها ايضًا مراتب وصيره ايضًا باسليمًا على انطاكية واقطعه ضيعة كبيرة » (ذيل يحيى بن سعيد ١٤٥-١٤٦) .

ارتفاعات كثيرة ولكنه كان مضيقاً على نفسه وكان منحنياً لا يرفع رأسه من الارض من دالّته وعظم شخصه وكان لا يفرج عن نفسه بشيء من ماله فاخذه اصحاب سيف الدولة وكانوا يعاقبونه ويطالبونه بثلثة قناطير ونصف من الذهب فراسل البطريرك القديس وهو في وسط العقوبات وقال له ارحم ايها السيد مثلي انا الشقي فركب لوقته وساعته ورفع عنه العذاب وتوسط امره في ما كان يُطالَب به الى ان حط الجملة الكثيرة من خمسة وعشرين الف دينار الى العشر منها وهو مقدار الفين وخمسمائة دينار فقال المستخرجون له لن يقوم ولا بهذا المقدار بغير عقوبة وضرب . فقال لهم تلميذ المسيح المتشبه به في كل حال انا اسألكم الا تعرفوا عليه بعد هذا بعقوبة بل سلموه الي وانا اكون القيّم لكم بالجملة .ثم تسلمه البطريرك وكان المستخرجون يطالبون البطريرك بالجملة ويلزم البطريرك ان يكون مطالباً له بها. فكانت المراسلة من البطريرك اليه في هذا الباب في قلبه كمثل الطعنات لان سهام الحسد كانت تعمل فيه فصار في ما بعد مطابقاً على قتل من احسن اليه .

وكان قتل البطريرك مثل شهادته التي تمت من هذا وغيره فكان يُنظَم في الخفية ويُؤرَّخ قليلاً قليلاً لانه اجتمع عليه من ميل سيف الدولة اليه مادّة في قلوب المسلمين من الحسد . ولكن لم يكن كلهم متطابقين على قتله بل الذين تطابقوا على ذلك اذ كانوا ممن زاد في الاحسان اليهم وذلك ان الحسد تبين فعله فيهم .

وكان بيانه ذلك ان سيف الدولة توفي وتقدم من بلد خراسان اقوام قاصدين غزو الروم وساروا الى انطاكية ولقيهم اهلها اجل لقاء. فخشي ابن مازك ذلك الملعون الذي اخذه البطريرك اليه وكان سم الحسد يعمل فيه ان لا يتمكن من البطريرك فيما بعد فلما وصل صاحب الخراسانية وخاف ان لا يتمكن منه فيفوته قتله استدعى اثنين من شيوخ انطاكية واماثلها الذين كان البطريرك توسط امرهم وشفع فيهم الواحد ابن محمود والآخر كان جاراً لهم يدعى بابن دغامة فقال لهما ما تقولان هل عندكما من الرأي ان تقرّوا الكافر يعيش. فيصل الى همنا بعد وقت رئيس ويكون هو جالساً ونكون نحن معاقبين كمثل ما كنا في وقت سيف الدولة. فقالوا له انه ليس من الصواب فقال لهما فما رأيكما

في كتابة فتوى في بابه الى الفقيه فحمدوا رأيه وكتبوا رقعة برأي مشترك تسنى عندهم فتوى . ولم يذكروا البطريرك باسمه بل قالوا ما رأيك ايها الفقيه في ما يوجبه الحكم على من يدبّر على حصن من حصون المسلمين فاجابهم انه يجب عليه القتل فقال المتقدم في الرأي والتدبير هذه الفتوى سيبانا ان نريها للعامة فهم يقتلونه للوقت من تفوسهم . ولم يكن هذا رأيه بالحقيقة لانه كان هو ايضاً من الفرس عارفاً باسباب الخراسانية . ففكر في نفسه ان يستدعي قوماً من الخراسانية ويريهم الفتوى لكي يقتلوا البطريرك ولا يحتجوا في ذلك وكان هذا ما اقنعهم وحداهم على ما ارادوا .

وكان للبطريرك جار من وجوه المسلمين يعرف بابن ابي عدو وكان له صديقاً صادقاً مناصحاً فاسرع اليه وقال له ماذا تعمل قم مسرعاً وخذ لنفسك والا فاعلم انك مقتول بعد قليل فقال له لِمَ ولأي شيء ومن اجل ماذا فقال له لأنه قد اجتمع عليك جمع خبيث واخرجوا فتيا ذكروا فيها وجوب القتل عليك . فاستعلم منه وقال له ماذا يجب عندك ان اصنعه فقال له انك لست في هذا الوقت في اعتقال فاخرج من باب المدينة آخر النهار فلا يصبح عليك الصبح الا وانت في نواحي حلب ولن يتبعك احد فهذا الذي عندي لك . فقال له اما انت يا سيدي فالله يجازيك بالحسنات واما انا فسبيلي ان افكر في ما اعمله . وانصرف الرجل واستدعى البطريرك ذلك الرجل الذي قال له فيما قبل وهو في دير القديس مار سمعان : لِمَ لا تجب الى المصير الى انطاكية في وقت العصيان . وهل انت ايها السيد ممن يقول بعد هذا انا الراعي الصالح . فلما مثل هذا الرجل بين يديه قال له اعلم ان جارنا فلاناً صار الي في هذه الساعة واشار علي بكيت وكيت فماذا ترى . فقال له ما اجود هذا يا سيدنا فاستخر الله وافعل فقال له : ان انا فعلت هذا كنت انت ايها الوقاح ممن يهزأ بي فيما بعد . وبعد هذا انت عتيد ان تقول انا الراعي الصالح في غد . فاجابه ذلك الرجل قائلاً ايها السيد ذلك كان سبباً آخر فقال له البطريرك نعم ليس بالخافي عني ان ذلك كان سبباً آخر بل لانه كان كذلك ولم يكن موافقاً في ذلك الوقت ما فعلته ولما لم افعله علمت انت انه لم يتضرّر بذلك احد من النصارى . لانه لم يكن قتلي المطلوب في ذلك الوقت والآن فالمطلوب هو قتلي وليس يطلب ذلك طلباً

مطلقاً بل بحرص شديد واجتهاد وكيد لان الذين يطلبون قتلي حسّاد وسم الحسد في اجسادهم مكنون . ومتى ما افلتُ من يديهم ولم يقذفوا سمهم في لم يُبقوا بعدها على نصراني ولا على كنيسة . ولكن هذا الوقت هو الوقت الذي يجب ان اقول فيه يا هذا ليس انا الراعي الصالح فقط بل اقول مع ذلك والراعي الصالح هو الذي يضع نفسه دون اغنامه . وانت فسترى بعد وقت هذه اللحية مخضوبة بدماني ومد يده مع هذا اليها .

وفكر فيما بعد ان يجتمع بذلك الشرير المتهيئ للعمل عليه . وكان عالماً علماً يقيناً انه قد مزج له قهوة الموت فارسل اليه بعد قليل بغير حذر منه ولا خوف اني اريد ايها السيد ان اجتمع بك فتأذن لي بذلك اذا رأيت موافقاً وكنت خالياً ان اصير اليك ؟ فلما سمع ابن مانك ذلك استفرض هذا القول منه وتصوره غنيمة فقال له لست في هذا الوقت متفرغاً لك فاذا تفرغتُ ارسل فاعلمك . ولم يزل طول نهاره في التدبير ولم يراسله بشيء لشغله بالحيلة عليه .

فلما ادرك الليل وتصرم وقت كبير منه وتناول البطريرك ما جرت عادته ان يتناوله من الطعام ارسل اليه ذلك الملعون قائلاً اني الآن فارغ لك في هذا الوقت ايها البطريرك فان رأيت ان تحضر فاحضر . فذهل خروف المسيح من هذه الرسالة في غير وقتها عند سماعه لها . وقال لاصحابه ماذا تسبلنا يا قوم ان نصنع وقد حضرنا امران غير موافقين لان المشي في هذا الوقت من الليل لا يليق ولا يصلح وذلك ان الطعام بعد في فيَّ والقوة ضعفت عن الحطاب وانا على هذه الحال . ولكن سبيل واحد منكم ان يستهكني فان احس مني برائحة خمر احتججنا وقلنا ان ذلك لا يمكننا في هذا الوقت وان كانت تكهتي نقية مضينا على كل حال . فلما استنكهه احدهم ولم يكن هناك رائحة سار على قدميه كمثل خمل سائر باختياره للذبح فلقيه ذلك الملعون وسلم عليه سلام مودة والغش في قلبه مكنون . ولما جلسا جميعاً كان مملوءا حقداً وغيظاً عليه فلم يصبر ان يبتدئه البطريرك بكلام بل قال له يا بطريرك ما بالك وانت واحد من اهل هذا البلد ساكن لنا ورأيك رأي سوء في معاملتنا لانك تعمل علينا . فقال له البطريرك وكيف ذلك يا سيدي ومن اي معنى فقال له عجباً لانك تكاتب ملك الروم وتستنهضهم الى قصدنا وتطمعهم فينا وتكاتب

غلام ابن حمدان ايضاً فقال له وما الدليل على ذلك يا سيدي ومن هو الذي وجد لي كتاباً بهذه الصورة فنهض ابن مانك كأنه يطلب كتاباً وقام قائماً وتكلم بالفارسية واستدعى من كان قد اعدّهم للقتل من الخراسانية وهو مع ذلك يعاين ويرعد لانه لم يكن جباناً فقط بل كانت صورته في الرجال صورة الخشّاف[1] قوياً وعيناً لان قامته كانت تكاد لا تزيد على اليسير الا بمقدار يسير فكان منظره يشبه خشافاً في اللون واللحظ والبشر. فلما حضر من استدعاهم من القوم المعدّين قال لهم عند ذلك بلسانهم واستانه ترجف :هذا هو المطلوب هذا هو الذي يريد ان يسلّم هذه المدينة هذا هو عدو المسلمين . فد خروف المسيح عنقه وهو جالس بغير انزعاج منتظراً اخذ رأسه ولم يكن مع اولئك مشرفية بل خناجر طوال فاقامه واحد منهم قائماً وضربه الآخر بخنجر طويل جاز كل الحديد في بطنه . ولما سقط الشهيد الى الارض قُطع رأسه ناحية وطرح في اتون الحمام في جوار دار ابن مانك وأُخرجت جثته الطاهرة في الوقت من باب المدينة بالليل وطرحت في النهر[2] ولم يُستر ذلك عن كافة النصارى بل لما سقط راعيهم ذهلوا واختبطوا بما دهمهم من ذلك وجزعوا جزعاً شديداً وتفرقوا في بيوت قوم من المسلمين استتروا فيها . لكنهم لم يطلبوا من احد لانه كان من الواجب ان يتم مقال ابيهم الذي تقدم فقاله انهم اذا اشتفوا مني بقتلي وقذفوا الدم الذي كتروه في قلوبهم علي لن يطلبوا سواي .

واما ذلك الحيوان الضاري الصورة الزائد في الوحشية فلم يزل ممسكاً الى وقت من الليل لان روعه ما كان بعد قد رجع اليه فلما تمادى به الوقت الى السحر عاد الى ذاته ووجه اشراطه قبل الصبح الى البيعة التي هي كنيسة القسيان وقلاية البطريرك . فلم يجدوا فيها غير مأكول مثل تين وزبيب وزيت قد احتُفظ به لمؤونة الكنيسة وقوت الاخوة بالمسيح ولم يكن هناك ذهب ولا فضة مخزونة . وكيف كان يُخزن شيء . والنفقة كانت تسبق ما يدخل ولا

---

١) الخشّاف بتقديم الشين هو الخفاش اي الوطواط

٢) من هذا النص الصريح يتضح غلط شلومبرجر حين روى ان قاتل خريسطوفورس هو امير سلم طعنه برمحه لظنه خيانته وميله الى الروم G. Schlumberger : Épopée Byzantine - tome 1er p. 25, édit. 1925

كان هناك ايضاً ملبوس وليس لمن كان ملبسه الصوف غير اسكيم رهبانية كان عليه . بل كان هناك اشياء يسيرة نفيسة للكهنوت كانت معدة لمن كان قبله على طول الزمان . فاخذوا جميعها وفتحوا خزانة البيعة ولما لم يجدوا فيها شيئاً عذبوا الخازن الى ان اظهر لهم المستور كله من اواني البيعة الذهب والفضة مع السلف الديباج ما كان يُحتفظ به لزينة الكنيسة ولم يتركوا شيئاً غير نحاس ومصاحف لم تكن كثيرة . واخذوا ايضاً اليهم كرسي مسار بطرس السليح وهو من خشب النخل مصفح بفضة وحفظوه في دار شيخ من شيوخهم يعرف بابن عامر ولم يزل في داره الى ان ملك الروم المدينة . فمن هذه الجملة ما حبا به الملعون من تولى سفك الدم الزكي بحسب ما كان وافقهم عليه ومن ذلك ما تمسك به للملاطفة من كان ينتظره من الفرس القادمين لقصد جهاد الروم .

وفيما بين ذلك قدم القوم وتبايعهم الانطاكيون جميعاً قبولاً بهياً . وكان ذلك الكافر اللعين مختصاً بهم لا من اجل ما حمله اليهم فقط بل لانه كان مشاركهم في قبيلتهم ولسانهم واخذوا في الغارات على اطراف بلاد الروم واجتياحها . وكان اذ ذاك نقفور الملك المغبوط متشاغلاً بقصد الباغر فلما بلغه ذلك انفذ بطرس الاصطراطوبدَرخ[1] فكانت له وقعة مع الخراسانية بناحية الاسكندرية الصغرى وهي التي بين المصيصة وانطاكية لما عادوا من غزاتهم فأوقع بهم وقتل صناديدهم واسر سلّار العسكر وجماعة منهم . وكان مع الخراسانيين جماعة من المسلمين الطرسوسيين فاشاروا عليهم بالّا يلقوا القتال ولا يصابروا في الحروب وقالوا ان هذا الجيش الذي يقاتلكم عسكر ملكي وليس لكم بهم طاقة فلم يقبل منهم الفرس بل صابروا الى ان قتل ابطالهم واكثر رجالهم ثم أُسر رؤساءهم . ومن رؤساء الخراسانيين المأسورين في ذلك الوقت سلّار العسكر فاشتراه الانطاكيون بمال جسيم وثياب كثيرة وبالاسارى الذين كانوا اسروهم متقدماً من الروم وكانوا في حبس انطاكية . ولما تخلص السلار ووصل الى انطاكية تلقاه اهلها بالاكرام والتعظيم واحتفلوا بلقاه كل الاحتفال ولكن بحسب ما دخل في ذلك الوقت مكرماً كان فعله بهم بالعكس لان رجاله

---

(١) stratopédarque من الرومية στρατοπεδάρχης اي قائد الجيوش

الذين سلموا من القتل كانوا عراة حفاة وعاد هو ايضاً مثلهم فكانت الضرورة تدعوهم الى خطف ما يقوم بهم فتسلطوا على الانطاكيين وصاروا يتخطفون اموالهم ورحالاتهم . فلم يصبر لهم الانطاكيون على ذلك بل دافعوهم واستوحشوا منهم وانتشبت الحرب فيما بينهم واخرجوهم من المدينة عراة .

وكان الانطاكيون الذين تولوا قتالهم حينئذٍ عصابتين . عمل رئيس الفريق الواحد على رئيس الفريق الآخر فقتله . وذلك انه كان قد ورد من مصر الى انطاكية رجل اسود ممن افلت من صياليك طرسوس يعرف بالرغيلي ومعه نفر يسير ليغزو بهم اطراف الروم فهذا كان رأس العصابة الواحدة . وكان رأس العصابة الاخرى كردياً من اهل بوقا يدعى علوش وكانت المدينة اذ ذاك في يده . فدخل الرغيلي يسلم عليه ولما انكبّ لتقبيل يده كان سيف علوش معارضاً على ركبتيه فاخترطه الرغيلي وضربه به للحال فقتله . فتفرق رجال المقتول وكانوا كثيرين وصار الامر الى القاتل وكان رجاله قليلين واستولى الرغيلي على انطاكية . لكنه ما قامت ولايته بعد ذلك ولا طالت مدته لانه بعد مدة يسيرة قدم بطرس الاصطراطوبدرخ ومعه عسكر ضخم من عسكر نقفور الملك الممدوح ونزل على انطاكية فاجتمع اليه ميخائيل البرجي المقيم بحصن بغراس واقاموا يحاصرون المدينة العظمى التي ما كانت ترام وهي اذ ذاك ضعيفة لما تقدم من الغارات على اعمالها وضجيع اهلها في حفظها وحراستها لانهم ما كانوا يشعرون انها تقصد في ذلك الوقت ولم يتمكنوا من جمع رجال يصعدون الى الجبل ليحفظوا السور ورآه الروم خالياً فبادروا بالطلوع اليه فلم يروا احداً فيه وتمكنوا من الصعود اليه وملكوا المدينة يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين وثلثمائة[1] . وطرح المسلمون النار لتحول بينهم وبين الروم ففتحوا باب البحر وخرج منه جماعة من اهلها وامر الروم جميع من كان فيها ولم يفلت منهم احد الا ذلك الملعون الذي كان رأس البلية ابن مانك . وكان قد خرج من المدينة ليلاً طالباً ان ينجو الى بلد من بلدان الاسلام وخفي في الاول امره فكان مسروراً بذلك لا من اجل خلاصه

---

١) ٢٨ تشرين الاول سنة ٩٦٩

من الاسر وحده فقط بل لتمكنه على ظنه من الحيلة والتدرص والكذب على الله والملائكة بانهم حملوه في الهواء وخلصوه وكانت جرت عادته قديماً بمثل ذلك وكان يدفن الحيلة في المخرقة والكذب على رب العالمين . ولكن القضاء العدل ههنا سبقه وقدم له في الطريق باقولة اي عصبة من السريان في الجبل الاقرع ممن كانوا يغيرون على انطاكية فقبضوا عليه وجاؤا به الى الاصطراطوبدرخ فسلمه الى من يحتاط عليه الى ان ينظر ماذا يجب ان يعمل في بابه . وانعم على اهل الباقولة بنعم جسيمة . واشار بعض الرؤساء بحمل ذلك الملعون ابن مانك الى الملك وخالفهم غيرهم وقالوا من هو هذا حتى يؤهل للحمل الى حضرة الملك بل من اوجب الاشياء قتله انتصافاً لذلك الدم الزكي الذي سفكه . فاجابهم الآخرون الذين كانوا اشاروا بحمله وقالوا ما الصواب ان يتدنس ذلك الدم الطاهر بهذا الدم النجس. فقال في الآخر افسطاثيوس البطريق اسطراتيغوس الكبادوك المعروف بالملايني هل البطريرك ههنا حاضر يأمرنا بقتله حتى نتدنس نحن بدمه كما تقولون . اما ذاك فانسان قد قضى ما يجب عليه ومضى وحصل بحيث ينتظر من الله المكافأة الجميلة . واما نحن فان كنا نصارى فيجب علينا ان ننتصف له من الظلم الجاري عليه ولما قال لهم مثل هذا القول اقنعهم وانفذ المحكوم عليه الى جسر باب البحر الذي كان هو طرح منه الجثة الكريمة الى النهر وقطع قطعة قطعة بالسيوف ولم تطرح القطع في النهر ولا أهل لذلك بل رُمي بكل واحدة منها حسبما اتفق على الحضيض وحصلت طعاماً للطيور وللكلاب . واما ابن محمود وابن دغامة اللذان كانا شاركاه في اعراق الدم الزكي فانهما كانا أنفذا الى حبس طرسوس وبقيا فيه مدة طويلة ولم يطلبا في ذلك الوقت . ثم اتفق ان تقفور الملك من قبل معرفته خبر انطاكية على حقيقته قُتل وحصل الملك ليُبي الشمشقيق[1] . فبادر بانفاذ ناودورس الزاعب[2] من اهل قلونية وجعله بطريركاً على مدينة انطاكية . فسأل عن خبر الشهيد

---

١) Jean Tzimiscès

٢) كان قبلاً رئيس دير انطوني في الارمناكس (التيبكون الصغير لينكن الثاني) صُيّر بطريركاً على انطاكية يوم الاحد ثالث وعشرين من كانون الثاني سنة الف وماتتين وواحد وثمانين للاسكندر (٩٧٠ م) (ذيل يحيى بن سعيد الانطاكي طبعة بيروت ص١٣٨)

وطلب بقية جسده الطاهر وذلك ان جثته الكريمة كانت قد ظهرت بعد ثمانية ايام من شهادته التي كانت ليلة اليوم الثالث والعشرين[1] من شهر ايار سنة ست وخمسين وثلثمائة للهجرة[2] وكان ظهورها في جزيرة من النهر قد تعلّقت بطرّاش هناك ولم يكن الرأس الكريم معها لانه قيل ان ذلك الكافر احرقه. فخرج قوم من نصارى انطاكية ودفنوها في الدير المقدس المعروف بارشايا. فلما عرف ذلك ثاودورس البطريرك لم يتبصر ولا تثاقل عن النفوذ الى هناك بل صار الى الدير المقدس وحمل جثة القديس ومعه الاكليرس الطاهر وخلق من المؤمنين وصاروا قدامها الى المدينة بليتين وحفل عظيم. وجعلوها في جرن لطيف من الرخام وضعوه على مائدة من رخام في مغارب الكنيسة الكبرى. الا ان القديس نقولاوس البطريرك[3] بعد برهة من السنين نقله من هناك باكرام ايضاً وجعله في جوف بيت القديس مار بطرس رأس الرسل مع شبرقته[4] وكرسيه وحيول[5] عدة ولباسات للآباء البطاركة واغناتيوس البطريرك ايضاً واشياء اخرى من حيول مار يوحنا المعمدان والحربة الكريمة اليدية وشبوقة خريصوطوس ومنطقة مار سمعان الحلبي العمودي وغير ذلك مما هو في خزانة القديس مار بطرس الى هذه الغاية.

ولم يسكت القضاء العالي كثيراً فيما بعد عمن كان شريكاً في القتل. فالواحد من الاثنين وهو ابن محمود كان في سجن طرسوس في كل شقاء وضرّ وألم يقين جسيم يعاقب باعماله الى ان هلكت نفسه الشقية المقابلة للحسن بالقبيح. واما الآخر وهو ابن دغامة فبقي محبوساً الى ان قدم الى انطاكية ميخايل البرجي[6]

---

١) في خزانة باريس سنكسار عربي رقم ٢٥٦ ورد فيه ان تذكار خريسطوفورس بطريرك انطاكية الذي استشهد في ايام المسلمين كان في اليوم الحادي والعشرين من ايار (ص ٢١٥) والصحيح ما جاء اعلاه.

٢) سنة ٩٦٧ للميلاد.

٣) كان قبلاً رئيس دير الافطوديون في القسطنطينية وصُلّي عليه فيها يوم الاحد سابع عشر كانون الآخر سنة الف وثلثمائة للاسكندر (٩٨٩ للميلاد).

٤) الشبوقة لفظة سريانية يراد بها المكلزة

٥) الحيول جمع حَيل وهو الدهن السائل من بعض الايقونات.

٦) Le patrice Michel Bourtzès

البطريق كان في ذلك الوقت فانفذ من احضره وثقّله بحجارة وطرحه في البحر . وحصل الثلاثة وهم ابن مانك وابن محمود وابن دغامة الذين تولوا قتل القديس ومكافأته بضد افعاله في الآخرة ينتظرون العقوبة الدائمة . واما القديس فحصل في السماوات العالية ساكناً للكهنة مخالطاً للصديقين واقفاً مع الرهبان الناسكين في صف الشهداء القديسين .

فيا من كان الى كل حسنة سابقاً اقبل مني هذا القول وان كان قاصراً لكنه بحسب الطاقة وكما لم تستنكف ان تسعى بقدميك من اجلي حتى سلمتني الى ذلك المؤدب الالهي الفاضل عساك عرفت اني اصير كما صرتَ في العلوم فاضلاً ولكنني عُلّمتُ على كل حال علماً وحاشا ان اقدر في بعض الاوقات ان اكتب خبرك لئلا ينسى في طول الزمان . فلذلك تعطّف علي في هذا الوقت واصفح عن تأخيري وأجب المقال فيك الى هذه الغاية . ولا تحرمني عند وقوفك الآن في السماوات امام المنبر العظيم بحسب ما كنت مشتاقاً او بحسب ما كنت حريصاً مجتهداً فينظر اليَّ الربّ وتشفع فيَّ وفي الذين تولوا على عنايتك في خلافتك فيَّ وفي اخوتي رضي الله عن الجميع . وبالغ فيَّ السؤال والتضرع ان يغفر خطاياي ويُنجب سعي في بقية عمري فاخلص من الشدائد وانتقل الى ما يرضي الله الهي ويُزلف لديه .

ولك عدة من التبّاع والمساعدين الاولاد الذين اولدتهم بالمسيح وقدمتهم الى الطريق المؤدية الى ما يرضي الله وقد كانوا اغصاناً مقدسة وازهاراً روحانية ومقدّمات من لدن النفس الالهي مقبولة .

فمنهم انبا جرجي الكبير نصبتك وغرستك الذي لقي الملك نقفور القديس ورأس على دير مار سمعان العمودي الحابي .

ومنهم انبا يوحنا العجيب الذي أُهّل لان صار كاثوليكاً على بلاد المشرق .

ومنهم انبا خاريطن الثاني المجتهد الارشيمندريتس رئيس دير سابا .

ومنهم سمعان العجائبي البحري الذي في جبل اللكام العجيب .

ومنهم انبا يعيش الحبيس الذي جاهد بانواع من عمود الحبيس وصبر على ضيق المحابس الكثيرة ولم ينتقل من طريقة واحدة وكان حبيباً بنا خصوصاً بل بالمسيح في دير القديس اغريغوريوس الثاولوغس ببشّاس .

ومنهم انبا ارميا رفيقه العجيب رئيس دير الست السيدة والدة الاله المعروف بالجراجمة الذي انشأه هو في جبل اللكام المقدس .

ومنهم الاب المغبوط افتيكيوس ابن فرجوس .

ومنهم انبا غريغوريوس الكبير الفاضل رئيس دير السيدة والدة الاله المعروف بدقنونا وكفانا اشتباره بالفضائل وقد ذكرت لكل منهم خبرًا مفردًا على حدة كما استأهلوا ان يكونوا مذكورين وان كنت اختصرت فيه غاية الاختصار وكفانا بهم من تضيك مديحاً لهم وذكرًا وشفاعتك وصلواتك وصلواتهم اجمعين لتكن لنا مخلصة وحافظة الآن وداعًا الى اقصى آخر الدهور كلها آمين .

(لها صلة)